

الإنسان في القرآن الكريم

- مرحلة الخلق نموذجاً -



د/ زعراط محمد

نائب المدير للدراسات

معهد الحضارة الإسلامية - وهران

من المسلم به في الفكر الانساني، أن الانسان شكل محور التفكير عند جهاذة العلم والنظر بمختلف منظوماتهم ونزعاتهم، وعلى امتداد صراع الاجيال النافذة في اعماق التاريخ، فلقد اهتم به علماء النفس والاجتماع والأخلاق والفلسفة، كما حظي بصيب وافر من سوسيولوجيا البحث التجريبي، ولكي نتبين اصوله التاريخية والاجتماعية، لابد من وثبة ارتدادية الى تلك الوثائر، والتي يمكن الاطمئنان إلى حد ما الى موثوقيتها وقوتها في الاستدلال على ما نريده، وقد افرزت تلك البحوث والدراسات أنماطا فكرية خاصة ليتضح بعد ذلك الاطار المفهومي، فمن قائل بأنه حيوان ناطق او انه حيوان ناطق مائت، (1) ومن قائل بأنه حيوان راق. (2)

فالإنسان حقيقة هو قيمة عظمى لأمر جليل لما يمثله من رصيد علمي، ولما يستحقه من دراسة تمكن من فهم القوى البيولوجية والوراثية لديه كما تساعد على وعي حضارته ومجتمعه، ومن ههنا يبحث علماء الاجناس على أسس علمية للوصول إلى أعماق مشكلاته.

ففي إطار التأسيس المعرفي للإنسان لم تعرف البشرية قبل الاسلام جماعة انسانية تتكون بوازع العقيدة، فقد ظلت الرسالات السماوية قبل البعثة المحمدية في دائرة اصلاح وجدان الافراد، دون ان تصبح محورا معياريا لانضواء الجماعة الانسانية.

فإذا كان معيار الطبيعة الانسانية متأصلا بالتوحيد فإن الاتجاه المادي يؤسس الجانب المنحرف مما يقتضي البحث في علل الانحراف والمرض دون

البحث في علل السلامة، لأنها توافق وتجانس السير الطبيعي لموضوع الخلق.

لقد ظل وجود الانسان محور جدل منذ القدم الى أن تبلور مع ظهور آليات الفكر الحديث، وتعدد اتجاهاته فتصور الانسان في التفكير الوجودي الملحد ليس له في المبتدأ وجود ليتم تحديده، لأن هذا التحديد لا يستقيم بالمعنى وجوده أصلاً، إلا بعد أن يكون الانسان قد وجد. وهكذا أصبح الاعتقاد انه لا توجد طبيعة انسانية، لأنه لا يوجد ال خالق ليتصورها ومن ثم يعهد الى خلق الانسان بناء على تصوره لتلك الطبيعة، فالإنسان ليس فقط موجوداً كما يتصور وجود نفسه، بعد ان تكون هذه النفس قد وجدت بل هو خالق لنفسه، لأنه وحده متصور لها. (3)

إن نظرة الماديين للانسان لم تتجاوز حدود وعيهم الضيق، فكانت غايتهم المستهدفة نفي القوة العليا -الله تعالى- مما يترتب عن ذلك اجتثاث ما يتصل بهذه المدركات الروحية والاخلاقية.

في الحقيقة أن الملاحظة قد حددوا تصوراتهم حول الانسان من الهوا الطبيعية، ولم يثنهم عن الايمان بالله نور من العلم ولا حجة من المنطق. إن انطباق قوانين المادة الجامدة على الانسان أسطورة غير مسبوقة في تاريخ الفكر البشري هدفها سفله الانسان الى درك اللاواقع ليتم مخطط الاستعمار. فقد حصر التفسير المادي فكرة الانسان حول نتوءات مجردة من القيم، فالمادة مهما تطورت فأنى يكون لها قيم روحية أو نفسية أو خلقية.

إن مفهوم التطور عند دعائه هو انتقال من البسيط الى المركب أو هو تغاير تدريجي من الوحدة النوعية الى الاختلاط والتكاثر النوعي أو ارتقاء من حال التجانس التركيبي الى التنافر فيه. (4)

أما في القرآن العظيم، فإن المتأمل في آياته في موضوع الانسان يدرك بدهاء أن هناك قوة قاهرة شكلت من الانسان هرما هندسياً، متعدد الخصائص من طباع وغرائز ونزعات وميولات.

قال تعالى :

- «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون»⁽⁵⁾.

- «خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار»⁽⁶⁾.

وقال تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفةعلقة، فخلقناعلقة مضغة فخلقنا المضة عظاما، فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر، فتبارك الله احسن الخالقين»⁽⁷⁾.

وهكذا يبدو أن آيات القرآن الكريم ينقض بعضها بعضا، وخاصة في قصة الخلق، وذلك لما ذكرت انه خلق من تراب، وأنه خلق من طين وأنه خلق من طين لازب، وأنه من سلالة وأنه من حماء مسنون، وأنه من صلصال كالفخار وأنه من ماء دافق، وهذا الاختلاف الذي يبدو للبعض متناقضا، لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في أسلوب القرآن الذي من بين خصائصه التكرار، فالإنسان كائن مجهول من حيث أنه لا يعي ما قبل لحظة الميلاد ولا يمكنه أن يبصر الغيب، فوجوده مسافة يقطعها منذ ميلاده الى موته.

وبهذا الاستدلال المنطقي بالاستناد الى الاعجاز البياني، تثبت نظرية القرآن، في ابطال أقوال الماديين في خلق الإنسان بالتطور. فمن حيث السياق القرآني فإن الآية تنفي فكرة التطور، بدليل أنها جاءت على سبيل الالزام بما ورد في العهد القديم، من أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام ترابا من الأرض: «وجعل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه سمة حياة فصار آدم نفسا حية»،⁽⁸⁾ وذلك حسب ما فهموه من سياق الآية، على أن آدم خلق من دون أب ولا أم، ولم تخطر فكرة التطور على بالهم قط. فكون القرآن يلزمهم بهذا الاعتقاد في خلق آدم. ويبني عليه بطلان شبهتهم في -عيسى عليه السلام- ويعني أن يصدق القرآن بهذا الاعتقاد وهذا الفهم في خلق آدم ويعلن أنه الحق، إذ لا يتصور أن يقيم القرآن أدلته على غير الحق، كما أن مناط الشبهة هو عدم وجود الأصلين البشريين لـ -عيسى- عليه السلام، ومعنى ذلك أن الشبهة تقوم على

شقين أحدهما اجتماع الاصلين، وثانيهما صفة هذين الاصلين؛ وهي البشرية، فلو أننا سلمنا بفكرة التطور في تنشأة آدم، لما كان خلقه بهذه الصورة، المفترضة ملزماً لهم، ومزيلاً لشبهتهم، إذ انه على فرض ذلك يكون المعنى أنه لا يلزم في -خلق آدم- أن يكون الانسان من أصل بشي، بل يجوز في قدرة الله أن يكون من أصل حيواني، ولكن رغم ذلك تبقى الشبهة قائمة وهي كيف وجد عيسى من انثى بلا ذكر وتمام الدليل يكون بخلق آدم ابتداء وليس بطريق التطور.

فنقطة البداية ارادة الله ان يخلق انسانا من اصل هذه الارض التي يعمرها، ثم كانت النقطة العلوية التي ميزته عن سائر المخلوقات ومنحته خصائص انسانية تجاوز بفضلها باقي المخلوقات ومن دلائل قدرته تعالى، ان وهبه سرا من اسرارهِ وهو القدرة على الرمز بالاسماء للمسميات وحين اظهر الانسان هذه القدرة، امر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، فامتنع ابليس فباء بالخسران المبين، قال تعالى : «قال لم لكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون»،⁽⁹⁾ وهنا تبدي الشر في ابليس وقال : «ربي فانظرنى الى يوم يبعثون، قال فانك من المنظرين، الى يوم الوقت المعلوم، قال : ربي بما اغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين».⁽¹⁰⁾

ومن هنا بدأ صراع الانسان مع الشيطان، وذلك حين احتال على اخراجه وزوجه من الجنة، وهبط ادم وما يحمل من امانة التكليف والمسؤولية واصبحت المواجهة بين ادم والشيطان قال تعالى : «ان الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوا».⁽¹¹⁾

آية ذلك ان القرآن يرسم عناصر القوة للانسان ويظهر ان الخير سابق في تكوين الانسان، وان الشر عارض عليه، وان طريق الانتصار على الشيطان هو اتباع الحق لنستنتج مما سبق :

- أن الانسان خلقه الله ليكون خائفته في الارض وليؤدي امانة الخير والبر، فسخر له الله عوالم الدنيا.

- تكريم الانسان بالعلم، وذلك بأمر الملائكة للسجود لادم حين رمز اسماء المسميات.

- أن آدم عليه السلام خلقه الله من تراب فطبيعته تكون من طبيعة تكوينه فكان تكوينه مناسباً لمكونات هذا الكون.

- أن آدم قد تنقل في خلقه بمراحل من التراب الى الطين الى الصلصال الى الحمأ المسنون الى الفخار.

لقد اختصت سور القرآن الكريم بخاصية تطور خلق آدم في اطواره المختلفة ففي قوله تعالى : «واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون»⁽¹²⁾ تنبيه الى الكيفية التي سوى الله بها ادم وذريته من بعده، الا وهو الحمأ المسنون فالصلصال سريع التحطيم والتفتت، والحمأ المسنون سرعان ما يتعفن وهاتان الخاصيتان، عدم التماسك والفساد- ملازمتان لانسان، الا اذا تداركه الله برحمته الواسعة ولعل هذا ما ذكره الحديث الشريف «خلق الله الارض جعلت تميد، فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت يا رب هل في خلقك شيء اشد من الجبال، قال : نعم الحديد، قالت يارب : فهل في خلقك شيء اشد من النار قال : نعم الماء. قالت يارب فهل في خلقك شيء اشد من الماء قال : نعم الريح. قالت يارب فهل في خلقك شيء اشد من الريح قال : نعم ابن ادم يتصدق بيمينه ويخفيها من شماله».⁽¹³⁾

ويمنتهى العهد المكي بقوله تعالى : في قصة آدم «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه، افنتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا»، وقد اشتملت هذه الآية على العناصر الآتية:

- ان ابليس من الجن وهي الآية الاولى التي يصرح فيها بذلك.
- ان لابليس ذرية.
- انه فسق عن امر ربه.
- انه لايجوز لبني ادم ان يتخذوا ابليس وذريته اولياء من دون الله.

الهوامش والمصادر والمراجع

- 1 - المجموع للفارابي ص 91.
- 2 - تنظر مشكلة الانسان د/لزكريا ابراهيم ص 198، مكتبة مصر، القاهرة.
- 4 - انظر الانسان بين المادية والاسلام محمد قطب ص 21 دار الشروق القاهرة.
- 5 - سور الحجر - الآية : 26.
- 6 - سور الرحمن - الآية : 14.
- 7 - سورة المؤمنون - الآية : 12.
- 8 - الافصاح الثاني ص 2، طبع باريس.
- 9 - سورة ص - الآية : 77.
- 10 - سورة الحجر - الآية : 36.
- 11 - سورة فاطر - الآية : 6.
- 12 - سورة الحجر - الآية : 28.
- 13 - سنن الترميذي ح 9، ص 89.